(٣٨) أبو حفص الحداد [١]

ذكر الشيخ أبي حفص عمر بن سلم الحداد رحمه الله تعالى:

كان من مُحتشمي هذه الطائفة، ولم يكن له نظيرٌ في الرياضة والكرامة والمروءة والفتوة، وكان اللهُ تعالى يُعلّمه ويلقّنه ـ أي على طريقة الإلهام.

نقل أنه كان حدادًا، ويكسبُ كلَّ يوم دينارًا، ويُنفقه على الفقراء والأرامل، ويُفطرُ على كسرةِ خبزٍ، وفي بعض الأيام يحوي بقيّةَ البقلِ التي كانوا يَغسلونه في بعض السواقي والبرك، فيغسله ويأتدمُ به، ومضى على هذا زمانٌ حتى مرَّ به رجلٌ أعمى، وقرأ هذه الآية[٢]: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] فاشتغل بها قلبه، ووردَ عليه واردٌ من الله تعالى، فدهشَ به، وأدخلَ يدهَ في الكيرِ، وأمسك قطعةَ حديدٍ مُحمّى بلا كلبتين، ووضعها على العلاة، واشتغل تلاميذُه بالمطارق، فنظروا، فإذا الحديدةُ المُحمّاة على يده، فقال لهم: ما لكم لا تدقّون؟ قالوا: وكيف؟ وهي في يدك. فأفاقَ، وتركَ الدُّكان، وفرّقَ ما كان له إلى الفقراء والمساكين، واشتغلَ بالعزلة والمراقبة.

وقال: كنتُ أَشتهي من زمانٍ أن أتركَ هذا الشغل، فما تركته حتى هو تركني.

---

(١) طبقات الصوفية ١١٥، حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٩، الرسالة القشيرية ٦٥، مناقب الأبرار ٣٠١، صفة الصفوة ٤/ ١١٨، المنتظم ٥/ ٥٣، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ١٢٠، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥١٠، العبر ٢/ ٣١، مرآة الجنان ٢/ ١٧٩، البداية والنهاية ١١/ ٣٨، طبقات الأولياء ٢٤٨، النجوم الزاهرة ٣/ ٤١، ٦٦، نفحات الأنس ٨٧، طبقات الشعراني ١/ ٨٢، الكواكب الدرية ١/ ٦٨٥، شذرات الذهب ٢/ ١٥٠. وأغلب المصادر ذكرت أن اسمه: عمرو بن سلمة..

(٢) في (ب): هذه الآية: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ونقل أنه كان جارًا لدارِ الحديث، فقيل له: لِمَ لا تحضرُ المجلس، وتسمع الحديث؟ قال: لأني قد سمعتُ منذ ثلاثين سنة حديثًا، وهو ما رُوي أنّه قال ﷺ: «مِنْ حُسنِ إسلام المرء تركهُ ما لا يعنيه»[1] وإني لا أَستطيعُ أن أعملَ بمعنى هذا الحديث، فكيف أَسمعُ حديثًا آخر؟!.

ونقل أنه خرج إلى الصحراء مع أصحابه، فبينما طابَ وقتُهم إذ جاء غزالٌ، ووضع رأسَه في حِجر الشيخ، فلمّا رأى الشيخُ هذه الحالة، أخذَ يلطمُ وجهه ويشهق، حتى فارقهم الغزالُ، فسأله بعضُ الأصحاب عن ذلك، قال: حين طابَ لنا الوقتُ خطرَ ببالي لو كان [لنا] غنمةٌ لشويناها، وبتنا الليلة هنا، ولم نتفرَّقْ، إذ جاء الغزال، وانقادَ كما رأيتم. قالوا: ولِمَ لطمتَ وجهَك وشهقتَ حتى راحَ الغزال، ومن كان له مع ربِّه هذا الشأن، وعنده هذا القرب كيف يتحزّن بظهور هذه الكرامة؟ قال: صدقتم، ولكن من أُعطي مراده في الدنيا حُرمَ بذلك القدر في الآخرة، أما سمعتم أنَّ نيلَ مصر كان يجري على مراد فرعون لعنَهُ اللهُ لعنةً دائمة.

ونقل أنه إذا حصلَ له غضبٌ أو انزعاج كان يُحدّثُ في حُسن الخلق حتى يسكنَ غضبُهُ، ثم كان يشرعُ في حديثٍ آخر.

ونقل أنه أبصرَ رجلاً باكيًا متضرِّعًا مُتحيِّرًا في حاله، قال: ماذا أصابك؟ قال: كان لي من عرضِ الدنيا حمارٌ، فضاع عنّي. فقال الشيخ: إلهي، بعزّتك أَسألُكَ أن تردَّ عليه حمارَه. ما رفع قدمَه عن ذلك المكان بعدُ إذْ جاء الحمارُ إلى صاحبه.

نقل عن الشيخ أبي عثمان الحِيري أنه قال: قلت للشيخ أبي حفص الحداد رحمهما الله: إنه قد ظهرَ لي أن أُحدِّثَ للناس وأعظهم. قال: وما حملَكَ على

---

(١) رواه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٣، في حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، والترمذي (٢٣١٨ و٢٣١٩) في الزهد، باب رقم (١١)، وابن ماجه (٣٩٧٦) في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة. قال الزرقاني في شرح الموطأ: والحديث حسن، بل صحيح.

هذا؟ قلتُ: الشفقةُ عليهم. قال: وإلى أيِّ بُعدٍ بلغتْ شفقتُكَ عليهم؟ قلت: إلى حدٍّ لو أَمرني اللهُ أن أُدخلَ النارَ بدلَ عباده، وعذّبني مكانهم، وأدخلهم الجنَّةَ لكنتُ راضيًا. قال: فعلى هذا يجوزُ لك أن تعظَهم؛ ولكنْ عظْ نفسَك أولاً، ولا تغترَّ بكثرةِ الناس في مجلسك؛ فإنهم ينظرون إلى ظاهرِك، واللهُ تعالى مُطّلعٌ على ظاهرك وباطنك. قال أبو عثمان: فطلعتُ المنبرَ، وشرعتُ في الكلام، والشيخُ أبو حفص كان في زاويةٍ من المسجد، فقام شخصٌ وسأل قميصًا، فخلعتُ قميصي، وأَعطيتُه السائل، فقال أبو حفص: يا كذاب، انزلْ من المنبر. قلتُ: وما كذبي؟ قال: ادّعيتَ أن شفقتَكَ على الناس أكثرُ من شفقتك على نفسك، ثم إنَّك سبقتَهم في بذل القميص، وما تركتَ لهم هذا الفضلَ، وآثرتَ بها نفسك، أفلا تكون كذابًا؟.

ونقل أنه كان عابرًا في السوق، إذِ استقبلَهُ يهوديٌّ، فوقعَ أبو حفص على الأرض، ودهش، فحين أفاق سُئل عن ذلك، قال: رأيتُه ملتبسًا بلباس العدل، ورأيتني ملتبسًا بلباس الفضل وخشيت من تعكيسِ الأمر، وتبديلِ الحال، فلذا زالَ عقلي.

نقل أنه رحمه الله قصدَ سفرَ الحجِّ، ووصل في سفره إلى بغداد، فقال جماعةُ المريدين بعضهم لبعض: الشيخُ لا يَعلمُ لسان العرب أصلاً، وإذا اتَّفقَ له مع مشايخ بغداد صحبةٌ، كيف يكون الحال؟ وهذا عارٌ علينا عظيم. وسيَّرَ الجُنيد جماعةً من أصحابه لاستقبال الشيخ أبي حفص، فعند الملاقاةِ شرعَ يُحدّث معهم بالعربية أفصح ما يكون، حتّى تعجَّبَ أهلُ بغداد من فصاحته، والله على كلِّ شيءٍ قدير.

نقل أنه قال للجنيد رضي الله عنه: مُرْ بعضَ أصحابك ليحصل من الحلاوى قدرًا صالحًا، ويحملَه على حمّالٍ، ويدور به الحمّال في أزقّةِ بغداد حتى يتعبَ، ففي أيِّ موَضعٍ وجدَ في نفسه التعبَ ليدقَّ البابَ القريبَ منه، ويهديه لصاحبِ ذلك البيت.

ففعلوا والقصة إلى آخرها، دقّوا بابًا، وقال شخصٌ: إن جئتم بالحلاوى

فتعالوا. فقيل له: وبمَ علمتَ أنّا جئنا إليك بالحلاوى؟ قال: إنّي كنتُ أمس في مناجاةٍ، فخطرَ ببالي أنَّ أولادي ما أكلوا الحلاوى من زمان، ويطلبون منّي، علمتُ أنّ الله تعالى قد بعثه لهم.

نقل أن الشيخ أبا حفص رحمه الله كان له من جملةِ المُريدين معه رجلٌ مؤدبٌ، ونظر إليه الجُنيد كم مرّة، وأعجبه من حُسن أدبه وخدمته لشيخه وتواضعه له، ثم قال الجُنيد لأبي حفص: كم سنةٍ هو في خدمتكم؟ قال أبو حفص: عشر سنين. قال الجُنيد: لله درُّه، حصلَ له في هذه المدّة ببركتكم معرفةٌ وأَدبٌ وسيرةٌ جميلة. قال الشيخ أبو حفص: نعم، هو قد أنفق على الفقراء في مجلسنا سبعة عشر ألف دينار، واستقرض سبعة عشر ألف دينارٍ وصرفها على حوائج السفر لأصحابنا، ومع هذا لا يستجري على أن يَسألني مسألةً.

نقل أنه قال: التقيتُ بأبي تُراب النَّخشبي رحمه الله في البادية، والحالُ أنّي ما ذقتُ طعامًا منذ ستة عشر يومًا، فذهبت إلى بركةِ ماءٍ لأشربَ منها، وبقيتُ هناك متفكّرًا. قال أبو تراب: ما أقعدَكَ على جنب البركة؟ قلت: إنّي مُتردِّدٌ بين العلم واليقين، وانتظرُ غلبةَ واحدٍ منهما، فإن غلبني العلم شربتُ، وإن غلبني اليقين تركتُ وذهبت.

أقول: معناه: إن غلبني العلم بأن العطشان إذا وصل الماء، ولا مانع هناك، فله أن يشرب منه، وإن وصلتُ إلى مقام اليقين، وتحققتُ أن لا أقدرَ على الشرب إلاّ بعد أن قدّر الله تعالى لي، وتحقّقتُ أنه لم يقدرْ لي الهلاك بسبب العطش، لا يضرُّني العطشُ ألبتَّةَ، فحينئذٍ لا ألتفتُ إلى الماء ولا أشتغل به، واصطبرُ على مضضِ العطش؛ فإنَّ الاشتغالَ يدفعُهُ حظُّ النفس الأمّارةِ، وفي مُدّة الشرب يَبقى القلبُ مشغولاً عن ذكر الله تعالى، وهذا من أعظمِ المصائبِ عندهم. والله أعلم..

نقل أنه حين دخلَ مكّة شرّفها الله تعالى، رأى فيها كثيرًا من الفقراء البالغين حدَّ الاضطرار، فحصلَ له من ذلك حالةٌ، وأخذ حجرًا، وقال: إلهي، بعزَّتكَ

أسألُكَ أن تَرزقني شيئًا لأُنفقَهُ على هؤلاءِ من عبادك، وإلاّ بعزَّتِك لأكسرنَّ جميع القناديل في المسجد الحرام. قال هذا وشرعَ في الطواف، فاستقبله في الحال رجلٌ وأعطاه صُرَّةً، وأخذها وصرفَها على فقراءِ الحرم.

ونقل أن الشبلي رحمه الله قد أضافَ أبا حفصٍ أربعةَ أَشهرٍ، كان يقدّمُ إليه أنواعَ الأطعمةِ اللذيذة، ويتكلّفُ في ذلك، ويهيِّئُ كلَّ يومٍ أنواعًا من الطعام وألوانًا منه، فقال له أبو حفص يوم الوداع: إن جئت إلى نيسابور إنّي أُريك طريقةَ الضيافة، وأُعلّمُكَ وظيفةَ الدعوة[1] للإخوان. قال الشبلي: وماذا وقعَ منّي من التقصير في الخدمة؟ قال: ذلك أنّك تكلّفتَ، والمتكلِّفُ لا يكونُ ذا فتوَّة، بل ينبغي أن تكون رعايةُ المضيف للضيف على حدٍّ لا يتضجَّرُ بنزوله، ولا يفرحُ بارتحاله، إذِ التضجُّرُ بنزول الضيف، والسرورُ بارتحاله بعيدٌ من الفتوة. ثم اتّفقَ للشبلي أن سافرَ إلى خراسان، وانتهى في سيرِهِ إلى نيسابور، ونزلَ عند أبي حفص مع أربعين إلاّ واحدًا، ففرح أبو حفص وأكرمهم، وأشعل في الليل واحدًا وأربعين سراجًا[2]، فقال الشبلي رحمه الله: يا شيخ، أَليسَ هذا تكلّفًا، وإنك قد مَنعتنا عنه، وأَتيتَ بمثله؟! قال أبو حفص رحمه الله: قم يا شبلي وأطفئ السراج. فقام الشبلي، واجتهدَ في ذلك، ولم يقدرْ إلاّ على إطفاءِ واحدٍ منها، ثم سألَ عن هذا السرِّ، فقال أبو حفص: أنتم أَربعون، وأنا أشعلتُ لكلٍّ منكم سراجًا لوجه الله تعالى، وأشعلت لنفسي سراجًا، فالذي كان لغيرِ الله تعالى قدرتَ على إطفائه، والذي كان لله لم تقدر على إطفائه.

سئل أن السكوت أولى للولي، أم الكلام؟ قال: لو علمَ الوليُّ آفةَ الكلام لسكتَ، ولو كان على عُمرِ نوح عليه السلام مثلاً وإن وصل إلى راحة السكوت، سألَ اللهَ تعالى أن يوفّقهَ على السكوت مدة.

قيل له: لِمَ لا تحبُّ الدنيا[3]؟ قال: لأنها مرامة، تُلقي العبادَ كلَّ يومٍ في

---

(١) في (ب): طريق الضيافة، وأعلمك طريقة الدعوة.

(٢) في (أ): وأشعل في الليل أربعين سراجًا وواحدًا.

(٣) في (ب): لم لا تحب النيسابور.

معصية. قيل: وإن كانت المعاصي في الدنيا، أليس التوبةُ فيها أيضًا؟ قال: نعم، ولكن حصولُ المعصيةِ يقينٌ، والتوبةُ مشكولة.

قيل: ما العبادة؟ قال: أن تتركَ كلَّ شيءٍ لك، وتَشتغلَ بما أُمرت.

قيل: ما الفقر؟ قال: عرضُ الانكسارِ والمذلّة على الله تعالى.

قيل: من الولي؟ قال: من رُزق قوّةَ الكرامات، ثم غيّب عنها.

قيل: من العاقل؟ قال: من طلبَ الخلاصَ عن نفسه.

قيل: من البخيل؟ قال: من تركَ الإيثارَ في وقت احتياجه.

قيل: ما الإيثار؟ قال: أن تُؤثر إخوانك على نفسك في الدنيا والآخرة.

قيل: ما الكرم؟ قال: أن تتركَ الدنيا لمن يحتاج إليها، وتتوجّهَ إلى الله تعالى باحتياجك إليه.

وقال: خيرُ وسيلةٍ يتوسَّلُ بها العبدُ، ويتقرَّبُ إلى الله تعالى دوامُ الفقرِ في الأحوال، وملازمةُ السُّنة في الأفعال، وطلبُ القوت الحلال.

وقال: من أبصرَ بنفسِهِ بعين الرضا هلك.

وقال: الخوفُ سراجٌ في القلب يميّزُ به بين الخير والشر.

لا ينبغي لأحدٍ أن يدّعي الفِراسة، ولكن ينبغي أن يكونَ على حذرٍ من فراسة غيره.

وقال: من ترى عليه فضلَ الله في جميعِ الحالات يُرجَى ألاّ يكونَ من الهالكين.

وقال: أفضلُ الأعمال المراقبة.

ما أحسن الاستغناء بالله! ما أَقبحَ الاستغناء بالأيام!.

من تجرَّعَ من شرابِ الشوقِ جرعةً دهشَ بحيثُ لا يفيقُ أبدًا إلاّ وقت اللقاء والمشاهدة.

العبادةُ في الظاهرِ سرورٌ، وفي الحقيقة غرور، وذلك لأنَّه لا يُسرُّ بفعله إلاّ المغرور.

المعصيةُ بريدُ الكفر كما أنَّ السُّمَّ بريدُ الهلاك.

من علمَ أنَّه يُبعثُ ويُحاسب ثم لا يَجتنبُ المعاصي والمناهي، فلا شكَّ أن سرَّه يُخبرهُ بأنّه لا إيمان بالبعث والحساب.

ومن أحبَّ أن يصيرَ قلبُه مُتواضعًا فليلازمْ صُحبةَ الصالحين، ويخدمهم.

محبَّةُ الجسدِ في الخدمة، ومحبَّةُ الرُّوح في الاستقامة.

التقوى أَكلُ الحلال فحسب.

الأعمى من يَعلمُ أنَّ اللهَ تعالى مُطّلعٌ عليه[١]، ولا يبالي بما يَصدرُ عنه من القبائح.

استوصاه رجل فقال: يا أخي، لازمْ بابًا واحدًا ليُفتحَ لك سائرُ الأبواب، واخدمْ سيِّدًا يخدمك سائر السادات.

قال مَحْمَش[٢]: خدمتُ أبا حفصٍ اثنتين وعشرين سنة ما رأيتُهُ ذكرَ الله تعالى على غفلةٍ[٣] في حالةِ انبساط؛ بل إذا ذكرَ اللهَ كان يذكره على التعظيم، وفي غاية الحضورِ، ويتغيَّرُ عليه حاله.

قيل له وقت النزع: بما توجَّهتَ إلى الله تعالى؟ قال: الفقيرُ إذا توجّه إلى الغني فهل يتوجَّه إلاّ بفقرِهِ؟ يعني: ليس للفقير وسيلةٌ إلى الغني سوى فقره.

---

(١) في (أ): مطلع على أعماله.

(٢) محمش في اللغة الفارسية تختصر التركيبات مثل (محمد شاد) و(أحمد شاد) إلى ممشاد ومحمشاد، وهذا اللفظ يمكن أن يكون مخفف: (محمد شاد) أو (ممشاد) أي العارف. انظر الترجمة العربية صفحة ٦٦٢.

وفي المعجم الذهبي صفحة ٤١٥.

شاد: اسم فاعل: مسرور، مبارك، راضٍ. لاحقة للاسم، مثل: أحمد شاد.

(٣) في (أ): ذكر الله خاليًا على غفلة.

نقل أن عبد الله السُّلمي حين حضرته الوفاة وصّى بأن يدفن تحت قدمِ أبي حفصٍ رحمهم الله.

أقول: ونقل أنَّه قال: إذا رأيتَ المُريدَ يُحبُّ السماعَ، فاعلمْ أنَّ فيه بقيّةً من الجهل والبطالة.

وقال: حسنُ أدب الظاهر هو عنوانُ حُسنِ أدب الباطن.

وقال: الفتوة إرادةُ الإنصاف، وتركُ مُطالبة الانّصاف.

وقال: من لم يزنْ أفعالَه وأحواله في كلِّ وقتٍ بالكتاب والسنة، ولم يَتَّهمْ خواطرَه فلا تعدَّه في ديوان الرجال. والله أعلم.

نسأل الله تعالى بوسيلتهم أن يَجعلنا من الفائزين بمرضاته، ويوفِّقنا لما نستجلب به رحمته ومغفرته، إنّه وليُّ الحسنات، رفيعُ الدرجات.

* * *